

محمّد بن جرير الطَّبْرِيُّ

حياته وأثاره

الزَّبير بن بردي* ◀

ملخّص:

إنّ الله جلّ ثناؤه جعل العلماء سبباً لحفظ دينه، وإقامة شريعته، والدعوة إليها اعتقاداً وقولاً وعملاً، فكان هذا من نصيبهم في الجهاد، وما ذاك إلا لأنّ العلم الشرعيّ من أفضل القربات التي يتقرّب بها العبد إلى ربّه. والامّة الإسلاميّة زخرت بعلماء كثيرين في كلّ عصرٍ ومصر. وإنّ من العلماء الذين سُهد لهم بالعلم النافع والعمل الصالح، والتّفاني في الدّعوة إلى الله، وتبليغ علمه، والجهاد في ذلك، إمام الأئمة، وشيخ المفسّرين والمُحدّثين والفقهاء والنّحويين والمؤرّخين الشّيخ أبا جعفر محمّد بن جرير الطَّبْرِيُّ الذي لا يُذكر علماء الإسلام الكبار إلاّ وذُكر في عدادهم، ولا يُستشهد بأقوال العلماء في المسائل والاختلاف إلاّ ويردّ ذكره ضمنهم. وسأطرق في بحثي إلى هذا الإمام، لأنّ في إظهار ترجمته وسيرته ونشأته إضاءةً لدرب الطّلب، وفي إبراز جهاده وعلمه ومكانته عند علماء الإسلام، دعوةً لسلوك طريقه ونهج منهجه، وفي التعريف بأثاره وتركته من المؤلفات حتّى لأهل الزّمان - من العلماء والكبار والصّغار - للنّهل منها ودراستها، وإشغال الأوقات بقراءتها ودراستها والانتفاع منها، والبحث فيها.

* أستاذ مؤقّت بجامعة الشّهد حمّه لخضر - الوادي - الجزائر. طالب دكتوراه في التّاريخ المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الطبري، ابن جرير، التفسير، العلم، الإمام.

مقدمة:

إنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ جَعَلَ الْعُلَمَاءَ سَبَبًا لِحِفْظِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهَا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا، فَكَانَ هَذَا مِنْ نَصِيْبِهِمْ فِي الْجِهَادِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرْبَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ؛ لِأَنَّ أَهْلَهُ هُمُ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَشْهَدَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَحَقِّ الْحَقَائِقِ، وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي أَوْرَثَهُمْ خَشِيَّتَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ سَهَّلَ اللَّهُ بَعْلَمَهُمْ طَرِيقَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَخْضَعَ لَهُمْ مَلَائِكَتَهُ وَمَخْلُوقَاتِهِ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَالرِّضَا عَنْ صَنِيْعِهِمْ. وَلِأَنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَصَابِيحُ الدَّجَى الَّتِي تُضِيءُ اللَّيَالِيَ الظُّلُمَاءِ، تَحْرُقُ أَنْفُسَهَا لِتُضِيءَ لِلنَّاسِ طَرِيقَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى جَنَّاتِهِ وَرِضْوَانِهِ. هُوَ لَا هُمْ الْعُلَمَاءُ، وَتِلْكَ مَهْمَتُهُمْ، وَالسَّعِيدُ مِنْ عَمَلٍ عَمَلَهُمْ، وَسَلَكِ طَرِيقَتَهُمْ.

والأمة الإسلامية، والحمد لله، زخرت بعلماء كثيرين في كلِّ عصرٍ ومصر. وإنَّ من العلماء الذين شهد لهم بالعلم النافع والعمل الصالح، والتفاني في الدعوة إلى الله، وتبليغ علمه، والجهاد في ذلك، إمام الأئمة، وشيخ المفسرين والمحدثين والفقهاء والنحويين والمؤرخين، أبا جعفر محمد بن جرير الطبري، الذي لا يُذكر علماء الإسلام الكبار إلا وذكر في عدادهم، ولا يُستشهد بأقوال العلماء في المسائل والاختلاف إلا ويرد ذكره ضمنهم، وهو مع هذا إمامٌ عَلمٌ من أئمة أهل السنة، ونابغة من نوابغ الزمان: علماً وحفظاً وذكاءً.

وسأطرق في هذه المقالة إلى حياة هذا الإمام وآثاره، لأنَّ في إظهار ترجمته وسيرته ونشأته إضاءةً لدرب الطلب، وفي إبراز جهاده وعلمه ومكانته عند علماء الإسلام، دعوةً لسلوك طريقه ونهجٍ منهجه، وفي التعريف بآثاره وتركته من المؤلفات حتَّى لأهل الزمان - من العلماء والكبار والصغار - للنهل منها ودراستها، وإشغال الأوقات بقراءتها ودراستها والانتفاع منها، والبحث فيها. وانطلاقاً ممَّا سبق، سأجيب في هذه المقالة عن الإشكالية الرئيسية الآتية: ما هي أبرز محطات حياة محمد بن جرير الطبري؟ وما هي أهم آثاره؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية، قسِّمتُ هذه المقالة إلى ستِّ محاور، هي: اسمه ومولده ونشأته، رحلاته العلميَّة وشيوخه وتلامذته، مذهبهِ وعقيدته، آثاره العلميَّة وثناء أهل العلم عليه، محنته ووفاته، قيمة تفسيره عند العلماء.

أمَّا الأهداف التي يسعى هذا البحث إلى تحقيقها، فأهمُّها:

- تسليط الضوء على واحدٍ من أبرز علماء الأمة الإسلاميَّة ومفسريها وفقهائها ومؤرخيها، الذين أفنوا حياتهم وجهدهم في خدمة الإسلام والمسلمين.
 - تبيان حياة الإمام محمد بن جرير الطبري في مختلف مراحل حياته ومن مختلف الجوانب، وكذا إبراز آثاره المتنوعة.
 - إضافة بحثٍ يكون مُساعداً وموجِّهاً لبقية الدارسين والباحثين لهذه الشخصية المهمة في تاريخ الأمة الإسلاميَّة.
- وقد اعتمدتُ في هذا البحث على المنهج التاريخي، ومن خلاله اعتمدتُ على المنهج الوصفي وكذا المنهج التحليلي.

١. اسمه ومولده.

١-١ اسمه ومولده:

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الأُمِّي مولدًا، الطَّبْرِيّ نشأةً، البغداديّ منزلًا. اتَّفَق المترجمون على اسمه واسم أبيه، واختلفوا في اسم جده، وأكثرهم على أنّه يزيد، وبعضهم يقول: بل هو كثير^(١). وكان الطَّبْرِيّ إذا سُئِلَ عن اسمه ونسبه يقول: اسمي محمد بن جرير، فيقول له السائل: زدنا في النسب؟ فيرفض ويتمثل بقول الشاعر:

قد رفع العجاج ذكري فادعني

باسم إذا الأنساب طالت يكفني^(٢)

ويُكْتَى محمد بن جرير بأبي جعفر، ولم يكن له ولد اسمه جعفر؛ لأنّه لم يتزوج قط، وقد صرح بذلك بقوله: فأنا لا ولد لي، وما حللت سراويلي على حرام ولا حلال قط.

وكان مولد الإمام أبي جعفر في أواخر سنة ٢٢٤هـ، أو في أوّل سنة ٢٢٥هـ، على خلاف في ذلك كما ذكر ياقوت الحمويّ^(٣).

٢-٢ نشأته:

نشأ الإمام محمد بن جرير الطَّبْرِيّ بمسقط

(١) تُنظَر ترجمة محمد بن جرير الطَّبْرِيّ في: «معجم

الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، ياقوت الحمويّ، (بتحقيق: الدكتور إحسان عباس): ٦/٢٤٤١-٢٤٦٩.

(٢) «غريب الحديث»، ابن قتيبة، (بتحقيق: الدكتور عبد الله الجبوري): ٢/٤٦٢.

(٣) «معجم الأدباء»: ٦/٢٤٤٥.

رأسه ببلدة أمْلَ بإقليم طبرستان^(٤)، فحفظ القرآن وهو ابن سبْع، كما ذكر ذلك بقوله: «حفظتُ القرآن ولي سبْع سنين، وصليتُ بالناس وأنا ابن ثمانين سنين، وكتبتُ الحديث وأنا ابن تسع سنين، ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وكان معي مخلّة مملوءة حجارةً وأنا أرمي بين يديه، فقال له المُعَبَّر: إنّه إن كُبر نصح في دينه وذبّ عن شريعته، فحرص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذٍ صبيّ صغير»^(٥).

فكانت هذه الرؤيا الصالحة التي رآها والد الطَّبْرِيّ موجّهًا له على مزيدٍ من الاهتمام به، ومُحَفِّزًا على مساعدته في طلب العلم منذ صغره وحتّى بعدما شبّ. ويذكر الحافظ الذهبيّ في ترجمته لابن جرير أنّه قال: «أبطأت عني نفقة والدي، واضطّرتُّ إلى أن فتقتُ كُمِّي قميصي فبيعتهما»^(٦). فهذه شهادة تدلّ على أنّ والده كان سنَدًا له على الطَّلَب، يكفيه مؤونة العيش والنفقة، وأنّ محمد بن جرير الطَّبْرِيّ لا همّ له إلا العلم في عزيمة قويّة وهمّة عالية.

(٤) إقليم طبرستان: أرض واسعة عالية الجبال كثيرة الأشجار وافرة المياه، من بلاد ما وراء النهر ممّا يحاذي أرض الفرس شرقًا نحو الشمال، منها جرجان وأمْلُ البلدة التي وُلِد فيها الإمام محمد بن جرير الطَّبْرِيّ. يُنظَر: «معجم البلدان»، ياقوت الحمويّ: ١٣-١٦.

(٥) «معجم الأدباء»: ٦/٢٤٤٦.

(٦) «سبّر أعلام النبلاء»، الذهبيّ، (بتحقيق: شعيب

الأرنؤوط وأكرم البوشي): ١٤/٢٧٧.

٣. رحلاته العلميّة وشيوخه وتلامذته.

ذكر صاحب كتاب "الفهرست" يحيى عن أبي جعفر: «..وأدرك الأسانيدَ العاليةَ بمصرَ والشَّامِ والعراقِ والكوفةِ والبصرةِ والرِّيِّ^(٧). وكان مُتَفَنِّناً في جميع العلوم: علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه، كثير الحفظ»^(٨).

يظهر من خلال هذا الكلام أنّ الطبري كان كثير الترحال في الطلّب، لم يترك مصرًا إلا نزل به وروى عمّن فيه من العلماء، حتّى عدّ له الإمام الذهبيّ، في سيرته، اثنين وأربعين شيخًا، وقال: «..وأمامًا سواهم»^(٩). وسأذكر بعضهم مبينًا خلاصة حالهم من كتاب "تقريب التهذيب"، حتّى لا يتقلّ الهامش بالتراجم:

«يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصّدقيّ، أبو موسى المصريّ، ثقة من صغار العاشرة، تُوفّي سنة ٢٦٤هـ.

• هارون بن إسحاق بن محمّد بن مالك الهمذانيّ، أبو القاسم الكوفيّ، صدوق من صغار العاشرة، تُوفّي سنة ٢٥٨هـ.

• محمّد بن المثنى بن عبيد العنزّيّ، أبو موسى

(٧) الرّي: حاضرة علميّة من أمّهات البلاد وأعلام المدن، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا. مرّ بها ياقوت الحمويّ وقد خرّبها التتار، ورأى جبلًا مُشرفًا يُطلّ عليها، كانت تُفاس عمارتها وحضارتها ببغداد. فتحها عمرو بن زيد الطائيّ في خلافة عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) سنة ٢٠هـ. يُنظر: «معجم البلدان»: ٣/ ١١٦-١٢٢.

(٨) «الفهرست»، ابن النديم، (طبعة دار المعرفة- لبنان): ٣٢٦-٣٢٧.

(٩) «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٢٦٩.

البصريّ، المعروف بالرّمن، ثقة تُبِت، من العاشرة، تُوفّي سنة ٢٥٢هـ.

• محمّد بن العلاء بن كُريب الهمذانيّ، أبو كُريب الكوفيّ، ثقة حافظ، من العاشرة، تُوفّي سنة ٢٤٧هـ^(١٠).

• أحمد بن منيع بن عبد الرّحمن، أبو جعفر البغويّ، الأصمّ، ثقة حافظ، من العاشرة، تُوفّي سنة ٢٤٤هـ.

• محمّد بن عبد الأعلى الصنعانيّ، البصريّ، ثقة، من العاشرة، تُوفّي سنة ٢٤٥هـ.

• هناد بن السريّ، ابن مصعب التميميّ، أبو السريّ الكوفيّ، ثقة، من العاشرة، تُوفّي سنة ٢٤٣هـ.

• العبّاس بن الوليد بن مزيد العذريّ البيروتيّ، صدوق عابد من الحادية عشرة، تُوفّي سنة ٢٧٠هـ^(١١).

• وذكر الإمام الذهبيّ بعض من روى عنه، وقال بعدها: وخلق كثير، وسأقتصر على ذكر من له شهرة بتأليفه التي بلغت الآفاق، وهما حافظا الإسلام:

• أبو القاسم الطبرانيّ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطير اللّخميّ الشّاميّ، الإمام الحافظ الثّقة، صاحب المعاجم الثّلاثة، تُوفّي سنة ٣٦٠هـ^(١٢).

• أبو أحمد، عبد الله بن عديّ بن عبد الله بن

(١٠) «تقريب التهذيب»، ابن حجر العسقلانيّ (اعتنى

به: حسان عبد المنان): ٥٥٧، ٥٧٢، ٦٣٥، ٦٨٦.

(١١) المصدر نفسه: ٥٤، ٥٤٧، ٦٤٣، ٣٠٦.

(١٢) «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١١٩-١٣٠.

محمد بن مبارك بن القطان الجرجاني، الإمام الحافظ الناقد العالم بالرجال، صاحب كتاب "الكامل في ضعفاء الرجال" في الجرح والتعديل، توفي سنة ٣٦٥هـ (١٣).

٣. مذهبه وعقيدته.

٣-١ مذهبه الفقهي:

أما مذهب الإمام محمد بن جرير الطبري الفقهي، فقد كان في بداية أمره شافعيًا، وقال عن نفسه: "أظهرت فقه الشافعي، وأفتيت به ببغدادَ عشرَ سنين.."(١٤).

ولما كانت همّة الطبري عالية، لم يرض بمذهب الشافعي تقليدًا، وإنما دعاه نشاطه العلمي إلى أخذ الفقه المالكي والحنفي والظاهرية، وذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست»، أن الطبري «..قرأ الفقه على داود، وأخذ فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان بمصر، وعن الحسن بن محمد الزعفراني ببغداد. وأخذ فقه مالك عن يونس بن عبد الأعلى، وبني عبد الحكم محمد وعبد الرحمن وسعد، وابن أخي وهب. وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالري..»(١٥).

ولما وعى الطبري هذه المذاهب الفقهية المتنوعة، دعت قريحته إلى المقارنة بينها والترجيح، بل وإلى الاجتهاد حتى ليعده بعض المترجمين مجتهدًا

مطلقًا لا يُقلد أحدًا، حتى صار له مذهب مستقل يُعرف بالمذهب الجريري الذي لم يكتب له الانتشار والذيع، واندثر بعد القرن الرابع الهجري (١٦).

ولعل أكبر دليل على انفراده بمذهب فقهي مستقل، ما حواه تفسيره من آراء فقهية، وجهود ملموسة في تفسير آيات الأحكام.

٢-١ عقيدته:

وأما عقيدته فالطبري إمام من أهل السنة والجماعة، بل هو قطب من أقطابها، وتفسيره الحافل في البلدان، والسائرة به الركبان، والمتلقى عند جمهور الأئمة بالقبول والرضوان، خير دليل على صحة اعتقاد الإمام صاحب الترجمة، ولأدلة على ذلك إقراره عقيدة السلف في باب الأسماء والصفات، ولا يفوت فرصة في تفسيره إلا ويُفند التأويل والتجسيم والنفي... الخ، وأثبت الشفاعة لأهل الكبائر من أمة النبي (محمد صلى الله عليه وسلم)، ورد على المعتزلة افتراءاتهم في خلق أفعال العباد وإنكار الرؤية، وهذا الكلام مثبت في كتب التراجم بإجماع أصحابها على جلاله الإمام الطبري وسلامه معتقده (١٧).

(١٦) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»،

ابن فرحون المالكي، (بتحقيق وتعليق: د. محمد الأحمدى

أبو النور): ١ / ٦١.

(١٧) «إمام المفسرين والمحدثين والمؤرخين، أبو جعفر

محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ): سيرته-

عقيدته- ومؤلفاته»، علي بن عبد العزيز بن علي الشبل:

٤٦-٤٢.

(١٣) المصدر نفسه: ١٦ / ١٥٤-١٥٦.

(١٤) «طبقات الشافعية الكبرى»، تاج الدين السبكي

(بتحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد

الحو): ٣ / ١٢٣.

(١٥) «الفهرست»: ٣٢٦.

٥. آثاره العلميّة وثناء أهل العلم عليه.

١-٥ آثاره العلميّة:

أمّا آثاره العلميّة المتمثّلة في مؤلّفاته، فقد عقد الدّكتور محمّد الزّحيلي فصلاً لذلك، في كتابه الموسوم بـ«الإمام الطّبريّ شيخ المُفسّرين وعمدة المؤرّخين ومُقدّم الفقهاء والمُحدّثين»، وذكر أنّه جمع له قرابة الثّلاثين مُصنّفًا من المصادر التي ترجمت له، وأشار إلى عدم وصول أغلب تراث الطّبريّ إلينا، وما وصل إلينا وصلَ منقوصًا، ولم يُطبع من جهوده وأعماله إلا تفسيره وتاريخه وبعض الرّسائل المُختصرة. وسأورد في هذه التّرجمة الموجزة بعض مؤلّفاته، مستندًا في ذلك إلى ما جمعه الدّكتور الزّحيلي^(١٨):

• «أحاديث غدير حُمّ»: ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية».

• «اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام»: وهو كتاب في الفقه، ولم يصل إلينا منه إلا جزء واحد، وطُبع الجزء الموجود باسم «اختلاف الفقهاء».

• «بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام»: وهو في تاريخ الفقه الإسلامي ورجاله وأبوابه.

• «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام»: وقد أحوّل عشرات المرات في تفسيره على هذا المؤلّف الفقهيّ، الذي يمثّل خلاصة مذهبه الفقهيّ، لم يصل إلينا منه شيء، فضاع على المتأخّرين تراث

(١٨) «الإمام الطّبريّ شيخ المُفسّرين وعمدة المؤرّخين ومُقدّم الفقهاء المُحدّثين، صاحب المذهب الجريّ»، محمّد الزّحيلي: ٥٣-٥٠.

الطّبريّ الفقهيّ والأصوليّ.

• «الخفيف في أحكام شرائع الإسلام»: وهو مختصر من كتابه اللطيف، ذكره ياقوت الحمويّ في «معجم الأدباء».

• «صريح السُّنّة»: وهي رسالة صغيرة بيّن فيها الطّبريّ مذهبه وعقيدته، وسماها بعضهم «شرح السُّنّة»، وهي مطبوعة.

• «الرّد على ذي الأسفار»: وهو كتاب في علم الخلاف للرّد على داود الظّاهريّ^(١٩)، شيخ الإمام الطّبريّ، لم يُتمّه الطّبريّ بسبب وفاة داود (عليه رحمة الله)، ولم يصل إلينا الجزء المؤلّف منه.

• «تاريخ الرّسل والأنبياء والملوك والخلفاء»: ذكر فيه الطّبريّ تاريخ العالم من لدن آدم (عليه السّلام) إلى عصره، وسماها بعض المتأخّرين «تاريخ الأمم والملوك». وهو مطبوع، ويُعدّ من أمّهات كتب التّراث الإسلاميّ.

• «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»: وهو تفسيره المشهور، مطبوع طبعت عدّة وبتحقيقات عدّة، ولعلّ أجلّ تلك التّحقيقات ما قام به الشّيخ محمود محمّد شاکر (عليه رحمة الله).

٤-٢ ثناء أهل العلم عليه:

شيوخنا محمّد بن جرير الطّبريّ، عليه من الله

(١٩) داود الظّاهريّ: هو داود بن عليّ بن خَلَف، أبو سليمان الظّاهريّ البغداديّ، الإمام البحر الحافظ العلّامة، المعروف بالأصبهانيّ، رئيس أهل الظّاهر، وإليه تُنسب الطائفة الظّاهريّة، رأس في الخلاف، من أوعية العلم في القرن الثّالث للهجرة. تُوفيّ سنة ٢٧٠هـ. يُنظر: «سير أعلام النّبلاء»: ١٣ / ٩٧-١٠٨.

سحائب الرّحمت، ونفَعنا بعلمه المَبثوث في هذه المؤلفات، عرف علماء عصره ومَن جاء بعدهم قدره، وأثنوا عليه بما هو أهلُّ له:

قال الخطيب البغداديُّ عنه: «..وكان أحد أئمة العلماء يُحكّم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله. وكان قد جمع من العلوم ما لم يُشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن وطُرُقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام النَّاس وأخبارهم..»^(٢٠).

وقال ابن خَلِّكان عنه: «.. صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إمامًا في فنون كثيرة، منها: التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وله مصنّفات مليحة في فنون عديدة، تدلُّ على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين، لم يُقَلد أحدًا»^(٢١).

وقال عنه الإمام الذهبيُّ: «الإمام العلم الفردُ الحافظ، أبو جعفر الطبريِّ، أحد الأعلام وصاحب

(٢٠) «تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطَّانها العلماء من غير أهلها ووارديها»، الخطيب البغداديُّ، (بتحقيق: د. بشَّار عوَّاد معروف): ٢/ ٥٤٩-٥٥٠.

(٢١) «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، أبو العباس شمس الدِّين بن خَلِّكان، (بتحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، لبنان، ١٩٧٧، ٤/ ١٩١.

التصانيف»^(٢٢).

وقال عنه أيضًا: «..كان ثقةً، صادقًا، حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علامةً في التاريخ وأيام النَّاس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك»^(٢٣).

٦. محنته ووفاته:

تعرَّض الإمام الطبريُّ في آخر حياته ببغداد، إلى ابتلاء عظيم من بعض المتعصِّبين للمذهب الحنبلِيّ، حملهم التَّعصُّب المقيت والتَّجَبُّر البغيض إلى رمي الإمام الهمام بالرَّفْض تارةً، وبالإلحاد تارةً أخرى، حتَّى إنَّهم منعه من الرواية والجلوس لتحديث تلاميذه الذين يَفدون عليه من مختلف الأمصار؛ لعلَّو إسناده وكثرة روايته وترحاله، وهذا بشهادة الحافظ ابن خزيمة حين سأل الحسين بن علي النيسابوريَّ^(٢٤) بعد رجوعه من بغداد إلى نيسابور: «..ممن سمعت ببغداد؟ فذكرت (أي الحسين) له جماعة ممن سمعت منهم، قال: هل سمعت من محمَّد بن جرير شيئًا؟ فقلت له: لا، إنَّه ببغداد لا يُدخَل عليه لأجل الحنابلة، وكانت تمنع منه. فقال (أي خزيمة): لو سمعت منه لكان خيرًا

(٢٢) «تذكرة الحُفَّاظ»، الذهبيُّ، (طبعة دار الكتب العلميَّة- بيروت): ٢/ ٧١٠.

(٢٣) «سِيَر أعلام النُّبلاء»: ١٤/ ٢٧٠.

(٢٤) الحسين بن علي النيسابوريُّ: هو أبو أحمد الحسين بن علي بن محمَّد بن يحيى التَّميمي النيسابوريُّ، تربى في جِجْر ابن خزيمة، وروى عنه الحاكم النيسابوريُّ في مُستدرِّكه. قال عنه الإمام الذهبيُّ: «الإمام الحافظ الأنبيل القدوة». تُوفِّي سنة ٣٧٥هـ. يُنظر: «سِيَر أعلام النُّبلاء»: ١٦/ ٤٠٧-٤٠٨.

لك من جميع مَنْ سمعتَ منه سواه»^(٢٥).

وقال ابنُ كثير: «ونسبَه بعضُ الرِّعاع من عوامِّ الحنابلة إلى الرِّفِضِ، ومن الجهلة مَنْ رماه بالإلحاد، وحاشاه من هذا ومن ذاك أيضًا. بل كان أحد أئمة الإسلام في العلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله، وإنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود^(٢٦)، الذي كان يتكلم فيه، ويرميه بالعظائم، ويرميه بالرِّفِضِ»^(٢٧).

وقد كانت وفاته وقت المغرب من عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة عشرٍ وثلاثمائة. وقد جاوز الثمانين بخميسٍ أو ستِّ سنين، وفي شِعْرِ رأسه ولحيته سوادٌ كثير، ودُفِنَ في داره بسبب فتنة الحنابلة الذين منَعوا من دفنه نهارًا.

(٢٥) «تاريخ مدينة السَّلام»: ٢ / ٥٥١.

(٢٦) محمد بن داود: هو أبو بكر محمد بن داود بن عليِّ الظاهريِّ، العلامَة البارِع ذو الفنون، صاحب الآداب والشعر والفرائض والفقه، أخذ عن أبيه داود، وورث مكانه في الإفتاء، وبسبب ما كان بين الطَّبريِّ ووالده من مناظرات وسجالات علمية ورثها الابنُ بعد وفاة أبيه، ولم يعيش إلا ثلاثًا وأربعين سنةً، وتوفيَّ سنة ٢٩٧هـ، وعاش الطَّبريُّ بعده ثلاثَ عشرة سنةً، كلُّها محنةٌ وبلاءٌ بسبب تأليب صاحب الترجمة لعوامِّ الحنابلة والظاهريَّة ضده، ولولا أنَّ كلام الأقران يُطوى ولا يُروى، لذكرتُ طرفًا ممَّا اختلفوا حوله من مسائل، ولكَّته التَّقليد والتَّعصب اللِّذان وأدا مؤلِّفات أبي جعفر، بسبب حصاره في بيته، ومنعه من إملاء مؤلِّفاته ونشر مرويَّاته، ففات على الأئمة الانتفاع بتلك النَّفائس والدرر. يُنظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٣ / ١٠٩-١١٦.

(٢٧) «البدية والنَّهاية»، ابن كثير، (بتحقيق: عبد بن عبد المحسن التَّركي): ١٤ / ٨٤٩.

ولما تُوفيَّ، اجتمع النَّاس من سائر البلد وصلُّوا عليه بداره ودُفِنَ بها، ومكث النَّاس يتردِّدون إلى قبره شهورًا يصلُّون عليه، رحمه الله^(٢٨).

رحم الله أبا جعفر محمد بن جرير الطَّبريِّ وأسكنه فسيح جناته، وجعل محنته التي ابتلي بها في ميزان حسناته، ونفعنا بعلمه المودع في مؤلِّفاته... آمين.

٦- قيمة تفسيره عند العلماء:

تظهر قيمة تفسير الطَّبريِّ من خلال كلام أئمة اللِّغة وعلماء التَّفسير فيه:

قال عنه أبو عمر الرَّاهد^(٢٩): «ابلتَه (أي كتاب الطَّبريِّ في التَّفسير) من أوله إلى آخره، فما وجدتُ فيه حرفًا واحدًا خطأ في نحوٍ ولا لغة»^(٣٠). وقال عنه أبو بكر بن خزيمة^(٣١)، وقد استعار

(٢٨) المصدر نفسه: ١٤ / ٨٤٨-٨٤٩.

(٢٩) أبو عمر الرَّاهد: هو محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الرَّاهد، المطرِّز اللُّغوي غلام ثعلب. قال التَّنوخيُّ: لم أرَ قطُّ أحفظ منه. أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة، وقال ابن بُرهان: لم يتكلم في العربيَّة أحدٌ من الأوَّلين والآخرين أعلم منه. وثقَّ أهل الحديث. تُوفيَّ ببغداد سنة ٣٤٥هـ. يُنظر: «بغية الوعاة في طبقات اللُّغويين والنحاة»، السيوطي، (بتحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم): ١ / ١٦٤-١٦٦.

(٣٠) «معجم الأدباء»: ٦ / ٢٤٥٣.

(٣١) أبو بكر بن خزيمة: هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السَّلمي النَّيسابوريِّ، إمام الأئمة وحافظ السنن والآثار، صاحب التَّصانيف، شيخ الإسلام. روى عن علي بن حجر، وابن راهويه، ومحمود بن غيلان. روى عنه البخاريِّ ومسلم في غير صحيحيهما. أدرك محمد بن جرير الطَّبريِّ، وتوفيَّ بعده بسنة أي سنة ٣١١هـ. يُنظر: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، عبد الحي بن أحمد

تفسير محمد بن جرير الطبري من أبي بكر بن بألويه وردة إليه بعد سنين: «.. لقد نظرتُ فيه من أوله إلى آخره، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»^(٣٢).

وقال عنه تلميذه الفرغاني^(٣٣): «فتم من كتبه كتابُ تفسير القرآن.. لو ادعى عالمٌ أن يُصنّف منه عشرة كتب، كلُّ كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مُستقصى، لفعل».

وقال الخطيب البغدادي عن «جامع البيان»، أثناء سرده لبعض مؤلفات ابن جرير: «.. وكتاب في التفسير لم يُصنّف أحدٌ مثله»^(٣٤).

وقال ابن عطية في مقدّمة تفسيره، وهو يسرد جهود مَنْ سبقه في التفسير: «ثم إنَّ محمد بن جرير الطبري (رحمه الله) جمع على الناس أشدّات التفسير، وقرب البعيد وشفى في الإسناد»^(٣٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عنه: «وأما التّفاسير التي في أيدي الناس، فأصحّها تفسير

الحنبلي الدمشقي، (أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط)، ط ١، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ١٩٨٩ م، ٥٧/٤.

(٣٢) «سير أعلام النبلاء»: ٢٧٢/١٤ - ٢٧٣.

(٣٣) الفرغاني: هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر بن حذيان التركي الفرغاني، الأمير العالم. حدّث بدمشق عن محمد بن جرير الطبري، وعليّ بن الحسن بن سليمان. وروى عنه أبو الفتوح بن مسرور والدارقطني وتمام الرازي وغيره. توفّي سنة ٣٦٢ هـ. يُنظر: «سير أعلام النبلاء»: ١٦/١٣٢ - ١٣٣.

(٣٤) «تاريخ مدينة السلام»: ٥٥٠ / ٢.

(٣٥) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، ابن عطية الأندلسي، (بتحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد): ٤٢/١.

محمد بن جرير الطبري، فإنّه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين..»^(٣٦).

وقال عنه صاحبُ كتاب «الإتقان»، بعدما تكلم على طبقات المُفسّرين: «فإن قلت: أيّ التّفاسير تُرشد إليه، وتأمّر الناظر أن يعول عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري، الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنّه لم يُؤلّف في التّفسير مثله»^(٣٧).

هذه بعض مقالات علماء الأئمة في تفسير الطبري، حتّى نستبين القيمة العلميّة والتراثيّة بهذا السّفر العظيم، والمقام ليس مقام استيعاب وجمع لأقوالهم في «جامع البيان»، وإلا فمقدّمات أصحاب التّفاسير لا تخلو من إشاراتٍ فيها استحسانٌ لصنيع أبي جعفر في تفسيره، وبيان فضله عمّن جاء بعده.

(٣٦) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية»: ٣٨٥/١٣.

(٣٧) «الإتقان في علوم القرآن»، جلال الدين السيوطي، (بتحقيق: فواز أحمد زمرلي): ٤٧٦/٢.

٨. الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث الموجز، الذي تناولت فيها حياة الطبري وآثاره، أضع هذه الخلاصات:

- في هوية الطبري، رأينا أنه ولد ببلدة أمل بإقليم طبرستان، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين.
- كان الطبري كثير الترحال لطلب العلم والتزود منه، فلم يترك مصرًا إلا نزل به، وروى عمّن فيه من العلماء، حتى عدّ له الإمام الذهبي في سيرته اثنين وأربعين شيخًا.
- تفقّه الطبري على المذهب الشافعي، ثم أخذ فقه بقبيلة المذاهب، وجمع أقوال الصحابة والتابعين، حتى صار إمامًا في الفقه المقارن، وصنّف فيه كتبًا عدّة.
- كان الإمام الطبري على عقيدة صحيحة، ويلتزم بمذهب أهل السنة والجماعة، بل هو قطب من أقطابها، ويتبع منهج السلف، وقد بيّن عقيدة المسلم في كتبه، وخاصة في التفسير.
- أمّا آثاره العلميّة المتمثّلة في مؤلفاته، فقد جُمع له قرابة الثلاثين مصنّفًا من المصادر التي ترجمت له، لكنّ أغلب تراث الطبري لم يصل إلينا، والذي وصل إلينا وصل منقوصًا، ولم يُطبع من جهوده وأعماله إلا تفسيره وتاريخه وبعض الرسائل المختصرة.
- عرف علماء عصر الطبري، ومن جاء بعدهم، قدره، وأثنوا عليه بما هو أهلُّ له، من أمثال:

الخطيب البغدادي والإمام الذهبي.

- تعرّض الطبري في آخر حياته ببغداد إلى ابتلاء عظيم من بعض المتعصّبين للمذهب الحنبلي، حتى إنهم منعه من الرواية والجلوس لتحديث تلاميذه الذين يقدون عليه من مختلف الأمصار؛ لعلّوا إسناده وكثرة روايته وترحاله.
- كانت وفاته يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة ٣١٠هـ. وقد جاوز الثمانين بخميس أو ست سنين، ودُفن في داره بسبب فتنة الحنابلة الذين منَعوا من دفنه نهائيًا.
- لقي تفسير الإمام محمد بن جرير عناية شديدة، وثناءً عاطفًا من علماء الأمة، والمقام ليس مقام استيعاب وجمع لأقوالهم في "جامع البيان"، وإلا فمقدّمات أصحاب التفسير لا تخلو من إشارات فيها استحسان لصنيع أبي جعفر في تفسيره، وبيان فضله عمّن جاء بعده، حيث كان لهذا التفسير بصمة واضحة المعالم في التفسير التي تمّ تأليفها بعده إلى يوم الناس هذا.
- رحم الله الإمام محمد بن جرير الطبري، وأنزل عليه شأبيب رحمته، وأسكنه فسيح جنانه، ونفعنا الله بعلمه، ووفّقنا لخدمته، وتقديم ما بقي منه للمسلمين وللعالم أجمع، ليكون أنموذجًا حيًّا، ومثلاً خالداً لأبناء الإسلام، وتربية القرآن، والتاريخ الإسلامي والحضاري والعالمي، وعلى الله قصد السبيل.

• والأمر الذي ينبغي أن أنوه به في الختام، أنّ أبا جعفر الطبري أشهر من أن يُعرّف، وأكبر من أن تُكتَب عنه صفحات معدودات، فلقد ترجم له عشرات الباحثين، إن لم نقل المئات ممّن درسوا تفسيره من إحدى زوايا البحث المختلفة، ولقد رجعت إلى أكثر من عشرة مصادر ترجمت للإمام الطبري ترجمةً وافيةً، واختصرتُ هذه الترجمة من هذه المصادر، وحسبي أن سعيتُ جهدي كي لا أكّرر عملَ غيري، واللّه وحده من وراء القصد.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

– «الإتقان في علوم القرآن»، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، ط ٣، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٩٨ م.

– «البداية والنّهاية»، إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد بن عبد المحسن التركي، ط ١، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٩٧ م.

– «بُغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة»، جلال الدين عبد الرّحمان السيوطي، تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم، ط ١، مطبعة عيسى الباباني الحلبي وشركائه، دون مكان نشر.

– «تاريخ مدينة السّلام وأخبار محدّثيها وذكُر قُطانها العلماء من غير أهلها ووارديها»، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه: د. بشّار عوّاد

معروف، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.
– «تذكرة الحُفاظ»، شمس الدّين الذهبي، صُحّح في مكتبة الحرم المكي تحت إعاونة وزارة المعارف للحكومة العالية الهنديّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، (د. ت).

– «تقريب التّهذيب»، ابن حجر العسقلاني، تقديم: محمّد إبراهيم شقرة، اعتنى به: حسّان عبد المنّان، بيت الأفكار الدوليّة، لبنان، ٢٠٠٥ م.

– «معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (ج ٦)، ياقوت الحمويّ الرّوميّ، تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط ١، ١٩٩٣ م.

– «الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، ابن فرحون المالكيّ، تحقيق وتعليق: د. محمّد الأحمديّ أبو النّور، دار التّراث للطّبع والنّشر، مصر، ١٩٧٢ م.

– «سِيرُ أعلام النّبلاء»، شمس الدّين الذهبيّ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وأكرم البوشيّ، مؤسّسة الرّسالة، لبنان، ط ١١، ١٩٩٦ م.

– «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، عبد الحيّ بن أحمد الحنبليّ الدّمشقيّ، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حقّقه وعلّق عليه: محمود الأرناؤوط، ط ١، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ١٩٨٩ م.

– «طبقات الشّافعيّة الكبرى»، تاج الدّين عبد الكافي السّبكيّ، تحقيق: محمود محمّد الطّناحيّ وعبد الفتّاح محمّد الحلو، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر، (د. ت).

– «غريب الحديث»، عبد اللّه بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق:

- د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧ م.
- «الفهرست»، ابن النديم، دار المعرفة، لبنان، (د. ت).
- «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية»، أحمد بن عبد الحلیم تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ومحمد بن عبد الرحمن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٩ م.
- ياقوت الحموي الرومي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣ م.
- «معجم البلدان»، ياقوت الحموي الرومي، دار صادر، بيروت، (د. ت).
- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» (ج ٤)، أبو العباس شمس الدين بن خلكان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، لبنان، ١٩٧٧ م.

المراجع:

- «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.
- «معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»،
- «الإمام الطبري شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين، صاحب المذهب الجريبي»، محمد الزحيلي: دار القلم، سوريا، ط ٢، ١٩٩٩ م.